International Jordanian journal Aryam for humanities and social sciences; IJJA
Volume 4, Issue 3, 2022

The eloquence of the Qur'anic style in presenting the Semi-sentence with the word God

Dr. Abdelkarim Amin Mohamed Soliman

Department of Arabic Language and Rhetoric, Faculty of Theology, Dokuz Eylül University, Türkiye.

Received: 5/6/2022
Revised: 23/7/2022
Accepted: 19/8/2022
Published online: 3/9/2022

* *Corresponding author:*
Email: abdelkreemameen@yahoo.com

https: 0000-0003-2999-1031

Citation: *Soliman, A. (2022).* The eloquence of the Qur'anic style in presenting the semi-sentence with the word God. *International Jordanian journal Aryam for humanities and social sciences; IJJA, 4(3).*
https://doi.org/10.65811/432

©2022 The Author(s). This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution 4.0 International (CC BY 4.0) license. https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

International Jordanian journal Aryam for humanities and social sciences: Issn Online 2706-8455

Abstract

The Qur'anic style is marked by precision and aesthetic harmony in its vocabulary and structures, where the miracle of the Qur'an lies not only in meaning but also in formulation. Word order in the Qur'an is deliberately employed to serve specific semantic and rhetorical purposes, with foregrounding and postponement representing a prominent stylistic feature. This study examines one form of this phenomenon, namely the foregrounding of a prepositional phrase as a predicate before the subject, within the Qur'anic discourse on the name "Allah" in the context of monotheism. Adopting a linguistic approach, the study is organized into an introduction and two sections: the first analyzes instances where the name of Majesty appears as a postponed subject preceded by a semi-sentential predicate, while the second explores its occurrence as a predicate of the general relative pronouns mā and man.

Keywords: Quran, God, Style, rhetoric, presentation.

بَلاغَةُ الأُسلوبِ القُرْآنِيّ في تقديمِ شِبهِ الجملَةِ مع لفظِ الجلالَةِ الله

د. عبد الكريم امين محمد سليمان

الملخص: : يتّسم الأسلوب القرآني بالدقة والجمال في اختيار ألفاظه وتراكيبه، حيث يرتبط الإعجاز القرآني بالمعنى والصياغة معًا. ويُعدّ التقديم والتأخير من أبرز الظواهر الأسلوبية التي تؤدي دورًا مهمًا في توجيه الدلالة وتحقيق المقاصد البلاغية. وتتناول هذه الدراسة إحدى صور التقديم والتأخير، وهي تقديم شبه الجملة خبرًا على المبتدأ، وذلك في سياق الخطاب القرآني المتعلق باسم الجلالة (الله) في آيات التوحيد. وقد اعتمدت الدراسة المنهج اللغوي، وجاءت في مقدمة ومبحثين؛ تناول الأول ورود اسم الجلالة شبه جملة خبرًا لمبتدأ مؤخر، بينما خُصّص الثاني لدراسة مجيئه خبرًا للاسم الموصول العام (ما) و(من).

الكلمات الدالة: القرآن، الله، بلاغة، الأسلوب، التقديم.

المقدمة

التّقديم والتّأخير هو أحد مباحث علم المعاني، وقد قال عنه عبد القاهر الجرجاني: "هو بابٌ كبيرُ الفوائد، جَمُّ المـَحَاسِن، واسعُ التَّصرفِ، بعيدُ الغايةِ، لا يزالُ يَفْتَرُّ لك عن بديعةٍ، ويُفْضي بك إلى لطيفةٍ، ولا تزال ترى شعرًا يَروقُكَ مُسمعُهُ، ويَلطفُ لك مَوقِعُهُ، ثُمَّ تنظر فتجد سبب أن راقك ولَطُفَ عندك، أن قُدِّمَ فيه شيءٌ، وحُوِّلَ اللَّفظُ عن مكانٍ إلى مكانٍ"[1].وتقديم الكلام على وجهينِ: تقديمٌ يكون في النِّيَّةِ مُؤَخرًا، وهو كخبر المبتدأِ إذا قُدِّمَ عليهِ، والمفعول إذا قُدِّمَ على الفاعل. وتقديمٌ لا يكون على نيّةِ التَّأخيرِ، ولكن على أن تنقلَ الشَّيءَ من حُكمٍ إلى حكمٍ آخر[2].

وقد توسَّع القرآن في استعمال التقديم والتأخير توسُّعا بارزًا حتَّى صار أحد خصائصه الأسلوبيَّة التي وظَّفها في كل موضوعاته، وتحاول هذه الدراسة أن تتعرَّض لحالةٍ واحدة من حالات التقديم والتأخير، وهي حالة تقديم شبه الجملة الخبر على المبتدأ، وتتوقَّف عند شبه جملة محدّدة، وهي التي جاء فيها لفظ الجلالة مجرورا في صيغة "لله" وذلك في سياق الخطاب القرآني عن ربِّ العزَّة وقضية التوحيد به، وتأكيد ألوهيَّته على خلقه وامتلاكه للكون وسيطرته على كلِّ ما فيه ليحاجج في ذلك المرتابين، ويدحض المشكّكين، ويربط على قلوب المؤمنين بأنَّه قيوم السماوات والأرض، وأنَّ كلَّ ما فيهما وما بينهما تحت مُلكِه وتصرُّفه، وأنَّ مَن ينكر هذه الوحدانيَّة وتلك الألوهيَّة في حقِّ الله عليه أن يثبت خلاف ما أثبتته الآيات.

وقد التفت ابن القيم لقيمة التقديم في القرآن، وجعل له خمسة أسباب تؤدِّي إليه وتقصد إليه، يقول: "تتقدَّم المعاني بأحد خمسة أشياء: إمَّا بالزمان، وإمَّا بالطبع، وإمَّا بالرتبة، وإمَّا بالسبب، وإمَّا بالفضل والكمال، فإذا سبق معنًى من المعاني إلى الخفَّة والثِّقل بأحد هذه الأسباب الخمسة، أو بأكثرها، سبق اللفظُ الدالُّ على ذلك المعنى السابق، وكان ترتيب الألفاظ بحسب ذلك، نعم وربَّما كان ترتيب الألفاظ بحسب الخفَّة والثِّقل، لا بحسب المعنى، كقولهم: ربيعة ومضر، وكان تقديم مضر أولى من

---

[1] عبد القاهر الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، تحقيق. محمود محمد شاكر (القاهرة: مكبة الخانجي، ط٣، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م)، ص١٠٦.

[2] انظر: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي، **نهاية الإيجازا في دراية الإعجاز**، تحقيق. نصر حاجي مفتي أوغلو (بيروت: دار صادر، ٢٠٠٤م)، ص١٨١، وعبد القاهر الجرجاني، ***دلائل الإعجاز***، ص١٠٦-١٠٧.

جهة الفضل، ولكن آثروا الخفَّةَ لأنَّك لو قدَّمت مضر ف اللفظ كثرت الحركاتُ وتوالت، فلمَّا أُخِّرت وُقِف عليها بالسكون"[٣].

يفهم من كلام ابن القيم أنَّ المعاني في كتاب الله تعالى جاءت في غاية الدِّقَّة، فلا تتقدَّم لفظةٌ على لفظةٍ، ولا تتأخَّر عنها إلا لسببٍ، وذلك لِداعٍ أسلوبيٍّ، معانٍ تقتضيها طبيعة السياق.

الدراسات السابقة:

نظرا لتوسُّع القرآن في استعمال التقديم والتأخير، ولأهميَّته في تشكيل الدلالة من خلال السياق، فقد قامت حوله العديد من الدراسات، نذكر منها الآتي:

١- أسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم، محمود السيد شيخون، القاهرة، مكتبة القاهرة الحديثة للطباعة، ط١، ١٩٨٣م

٢- بلاغة التَّقديم والتَّأخير في القرآن الكريم، علي أبوالقاسم عون، دار المدار الإسلاميّ، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.

٣- دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم دراسة تحليلية، منير محمود المسيري، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م.

ورغم قيمة هذه الدراسات، فإنَّها حاولت أن تشير إلى التقديم والتأخير في القرآن كلِّه وهو ما جعلها لا تعطي كلَّ حالات التقديم ما تستحقُّه من دراسة، كما أنَّها لم تتوسَّع في التحليل اللغويِّ والبلاغيِّ لكلِّ حالةٍ أو لكلِّ شاهدٍ، وتحاول هذه الدراسة أن تكون أكثر تحديداً في اختيار حالة التقديم كخاصيَّة أسلوبيَّة اهتمَّ الخطاب القرآنيُّ بتوظيفها، وأكثر اتساعاً في التحليل اللغوي والبلاغيِّ والدلاليِّ لشواهدها، وقد جاءت الدراسة في مبحثين، الأوَّل تناول اسم الجلالة شبه الجملة (لله) خبر مقدَّم والمبتدأ المؤخَّر اسم، بينما تناول الآخر مجيء اسم الجلالة شبه الجملة (لله) خبر مقدَّم للاسم الموصول العام (ما) و(مَن)، وقد اعتمدت الدراسة في تحليلاتها على المناهج اللغويَّة.

المبحث الأوَّل: اسم الجلالة (لله) شبه جملة خبر مقدَّم والمبتدأ المؤخَّر (اسم)

---

[٣] محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن شمس الدين ابن قيم الجوزية، **بدائع الفوائد**، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا، وعادل عبد الحميد العدوي، (مكة: مكتبة نزار مصطفى الباز، ط١، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م)، ج١، ص٦٥

باستقصاء الآيات القرآنية في هذا الضرب من الخطاب، يُعلم أن أكثر ما ورد من أسماء في منطقة المبتدأ المؤخر هو دال (مُلْكُ)، وله صورتان من حيث بلاغة الفصل والوصل؛ فإما أن يرد في حالة الاستئناف، وإما أن يرد في حالة الوصل بـ (الواو). ولكثرة ما ورد في آيات القرآن الكريم من هذا الضرب، سنقتصر على بعض النماذج، تاركين الأخرى المشابهة لتأمل القارئ.

ففي حالة الاستئناف يقول سبحانه وتعالى: ﴿**لِلَّهِ مُلْكُ** السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة: ١٢٠). وفي حالة الوصل يقول جل شأنه: ﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ** السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٨٩).

أما بقية الأسماء الأخرى التي ترد في منطقة المبتدأ المؤخر، فأحيانًا ترد تراكيبها معتمدة على الاستئناف كذلك، وأحيانًا ترد معتمدة على الوصل بـ (الواو)، أو بـ (الفاء)، أو بـ (بل).

ومن الضرب الأول قول (الله) تعالى: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (الروم: ٤). ومن الضرب الثاني المعتمد على الوصل ب(الواو) قول مولانا عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٠)، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١١٥). كما يرد المعتمد على الوصل بـ (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ (النجم: ٢٥). وأخيرًا يرد المعتمد على الوصل بـ (بل) قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (الرعد: ٣١) *.

وثمة بعض المواضع الأخرى التي يرد فيها الخبر المقدم (لله) على المبتدأ، لكنها مُسْتَهَلَّة بالأمر الموجه من رب العزة سبحانه إلى نبيه ومصطفاه ﷺ في الفعل

* من الثابت أن هناك نماذج كثيرة من بنية هذا التركيب. انظر على سبيل المثال: سورة (آل عمران: ٩٧).

(قُل)[٤].

ويفيد تقديم الخبر شبه الجملة على المبتدأ المعرفة التخصيص والقصر[٥]؛ أي اختصاص الخبر المقدم بالمبتدأ المؤخر. ولو جاء التركيب على طبيعته؛ أي ورد المبتدأ أولًا والخبر ثانيًا؛ إذ المبتدأ هنا معرفة مما يسوغ مجيئه في الصدارة، لتغير المعنى، فلو قلت: ملك السموات والأرض (لله)،يمكن أن يكون هذا الملك له ولغيره. أما بتقديم الخبر الشبه جملة،أصبح المبتدأ (ملك) مختصًا ب(الله) ومقصورًا عليه.

وإذا كان هذا على المستوى النحوي والدلالي، فإنه على المستوى المعرفي، عندما وُجِدَ الإنسان على الأرض كانت السموات والأرض وما فيهن مما لابد أن تشغل فكر الإنسان. يرى بني البشر ليلًا ونهارًا، ثم يرى في الليل قمرًا ونجومًا، وفي النهار شمسًا، يرى مخلوقات غيره تشاركه الحياة الأرضية...إلخ. كان من الطبيعي بعد كل هذا، أن يُطْرَحَ هذا السؤال: لمن كل هذا؟[٦].

ومن هنا تعدَّدت الأجوبة، وبخاصَّة في الحِقَب التي لم يُرْسَل فيها أنبياء ورسل: أهي لخالقٍ لم يره البشر؟ أم هي للأصنام والآلهة التي يعبدونها؟ أم أنها وجدت هكذا؟ ومَن المتصرف فيها بتسييرها على هذا النحو المحكم؟...إلى غير هذه الأسئلة.

وظلت هذه المسألة في شد وجذب؛ ففي فترات الرسل يعرف الناس الحقيقة، فيؤمن من يؤمن عن يقين وثقة في خالقه عز وجل، ويكفر من يكفر عنادًا وكبرًا.

فلما بُعِثَ النبي ﷺ وكانت معجزته القرآن، سجل الحق سبحانه وتعالى هذه الحقيقة في قرآن يُتْلَى إلى يوم القيامة ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ لكي تُحسم هذه المسألة؛ إذ لا نبي ولا قرآن بعد ذلك. ومن هنا كان هذا التقديم، الذي لا يمكن لأحد – بعد ذلك - أن يدعي غيره .

---

[٤] انظر على سبيل المثال: (البقرة: ١٤٢)، (الزمر: ٤٤).

[٥] أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي، **مفتاح العلوم**، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٠م)، ص٢١٩، وضياء الدين ابن الأثير (٦٣٧ه)، ***المثل السائر***، تحقيق: أحمد الحوفي ودكتور بدوي طبانة، (القاهرة: دار نهضة مصر، الطبعة الثانية، بدون تاريخ)، القسم الثاني، ص٢١٠، ٢١١. وفي معرض هذا، ناقش ابنُ الأثيرِ الزمخشريَ في رأيه الذي يقول: إن تقديم (إياك) على (نعبد) و(نستعين) في سورة الفاتحة للاختصاص نافيًا ذلك، وقائلًا بأن هذا التقديم يختص بمراعاة نظم الكلام. انظر، المثل السائر، ج٢، ص٢١٢. وأنا أخالف ابن الأثير في هذا، وأوافق الزمخشري؛ فوجه الاهتمام في النظم موجَّه إلى المعنى وليس إلى الشكل. وإذا جاء الشكل بوصفه نتيجة لعملية التقديم، فإنه يكون نتيجة ثانوية، لا أولية؛ إذ المعول عليه هو كيفية إنتاج الدلالة، وليس كيفية شكلها. إن الدلالة تمثل جوهر الأسلوب، والشكل يمثل المظهر، فمتى اهتم الإسلام بالمظهر وقدمه على الجوهر؟!.

[٦] وبخاصة في عصور الشرك، بعد الفترات الإيمانية لآدم وأولاده.

وحتَّى على المستوى الشخصيِّ، إذا رأى إنسانٌ حديقةً غناء مثلًا، أو قصرًا مشيدًا، ألم يقل قبل دخوله في أي تفاصيل،أو طرح أي أسئلة: لمن هذا؟. وهذا ما تمَّ في الذاكرة الإنسانيَّة، وإن لم يُتلفظ به، أو تُثار حوله قضية، لمن كل هذا؟ ومَن المتصرف؟ ولَمَّا كان الاهتمام والانشغال الذهنيُّ ينصرف إلى الأحقِّ بالأهليَّة والملكيَّة، وليس إلى المملوك؛ إذ إنَّه موجود ومُشَاهَد، كان التقديم أولى؛ إذ إنَّه أغاث الملهوفَ وأراح المتشوِّقَ إلى مالك هذا الملكوت (السموات والأرض)، وأنَّه وحده المختصُّ بهذا الملك والمتصرِّف فيه، والمسيِّر له (لله).

ومن هنا، لا تجد في القرآن الكريم كلِّه آيةً تقول: (ملك السموات والأرض لله). وجدير بالذكر والتأمل والتدقيق، أن هذا التعبير وهذه الملكية عندما تأتي على سبيل العموم تأتي هكذا؛ أي بتقديم شبه الجملة (لله) على (ملك). لكن على مستوى التفصيل، يمكن أن يرد دال (الأرض) - مثلًا - مُقَدَّمًا على شبه الجملة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٨). لكن مثل هذه المواضع ترد في سياقاتها المناسبة لها.

وبتأمل النموذج الأول الذي اعتمد على الاستئناف في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة: ١٢٠)، نُدرك أن المبتدأ المؤخر (مُلْكُ) مُعَّرفٌ بالإضافة[٧].

وفي الاستئناف يقول ابن عاشور: "تذييل مؤذن بانتهاء الكلام ؛ لأن هذه الجملة جمعت عبودية كل الموجودات (لله) تعالى، فناسبت ما تقدم من الرد على النصارى، وتضمنت أن جميعها في تصرفه تعالى، فناسبت ما تقدم من جزاء الصادقين. وفيها التفويض (لله) تعالى في كل ما ينزل"[٨]. وفي تقديم الشبه جملة (لله) على المبتدأ يقول: "وتقديم المجرور باللام مفيد للقصر، أي له لا لغيره"[٩].

كما يقول في تقديم الجار والمجرور في (على كل شيء) على المبتدأ (قدير): "وتقديم المجرور بـ (على) في قوله (عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) للرعاية على الفاصلة المبنية على

[٧] في النحو التقعيدي، يجب تقديم الخبر الشبه جملة على المبتدأ النكرة. لكن المبتدأ هنا معرفة؛ سواء أكان بالإضافة مثل هذا الموضع، أم بـ (ال) كما سيأتي. أي يمكن الابتداء به، وإذا تم تأخيره، فيكون ذلك لدواعٍ بلاغية.
[٨] الشيخ الطاهر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م)، الجزء السابع، ص١١٩.
[٩] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٧، ص١٢٠.

حرفين بينهما حرف مد"[١٠].

وهنا أخالف ابن عاشور – كما خالفتُ ابن الأثير من قبل -؛ لأنه كما قلتُ سابقًا: إنَّ أيَّ بنيةٍ بلاغيَّةٍ في العلوم الثلاثة للبلاغة العربية، لا ترد في القرآن الكريم خادمة للشكل بشكل أساسي، وإنما الهدف هو النواحي الدلالية، ثم تأتي النواحي الشكلية الجمالية في مرحلة تالية. وهذا هو مكمن الإعجاز القرآني: الجمع بين الناحية الدلالية والناحية الشكلية في السجع وغيره. أما أن تأتي هذه البنية أو تلك بهدف حسي فحسب، فهذا ما لا أؤمن به[١١]. ولا ضير علينا إذا ناقشنا ابن عاشور هنا.

إن الآية القرآنية الكريمة تقول: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ولما صُدِّرت الآية باختصاص الباري جل وعلا بملك السموات والأرض وما فيهن، كان العالق في الذهن هو هذا الملك بما فيه. ولما كان ملوك الدنيا ممن يخلدون إلى الراحة، ويوكلون تسيير أمور ملكهم إلى غيرهم من الوزراء، ورد الضمير (هو) ليثبت في الذهن أن المالك – الذي سبق في شبه الجملة (الله) هو القادر على التصرف. لكن على أي شيء هو قادر في هذا الملك؟ على كل شيء.

ولك أن تتأمل هذه الروعة البلاغية، وذلك في الارتباط بين (مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) و(كل)، وبين (وَمَا فِيهِنَّ) و(شيء). إذن فالعالق في الذهن – هنا - هو هذا الملك بكل جزئياته.أما القدرة فهي معلومة من منبعين ينبثقان من مصدر واحد: اسم الجلالة (الله) في شبه الجملة المقدم؛ إذ يضم كل صفات الجلال والجمال والكمال، والضمير (هو) الذي يعود إلى اسم الجلالة (الله) سبحانه وتعالى.

ومن هنا كانت مسوغات التقديم للجار والمجرور (عَلَى كُلِّ شَيْءٍ). ولا يمكن أن نقول: إن الهدف الأساسي لهذا التقديم يتمثل في مراعاة الفاصلة، وإنما تأتي مراعاة الفاصلة في مرحلة تالية.

كما أنني لا أوافق الإمام الزركشي على ما ساقه في هذا الاتجاه في عنوانه (إيقاع المناسبة في فواصل الخواتم)، إذ قدم اثني عشر مظهرًا لغويًا خروجًا عن نظم الكلام

---

[١٠] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٧، ص١٢٠.
[١١] دسوقي إبراهيم، **خواتم الآيات دراسة أسلوبية**، (القاهرة: دار اليقين، ط١، ٢٠١٦م)، ص٣٣١- ٣٤٩.

لأجل مراعـــاة الفواصـــل[١٢].

وللتأكد من هذا نذهب إلى عبد القاهر الجرجاني الذي يقول عن التجنيس - وهو ناحية شكلية مثل السجع – وعلاقته بالدلالة / المعنى، بعد أن قدم أمثلة له: "فقد تبيّن لك أن ما يُعطي التجنيس من فضيلة، أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن، ولما وجد فيه معيب مستهجن ؛ ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به، وذلك أن المعاني لا تدين في كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه ؛ إذ الألفاظ خدم المعاني والمُصَرَّفةُ في حكمها، وكانت المعاني هي المالكة سياستها، المستحقة طاعتها.

فمن نصـــــر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته، وأحاله عن طبيعته...ولهذه الحالة كان كلام المتقدمين الذين تركوا فضل العناية بالسجع ولزموا سجية الطبع، أمكن في العقول، وأبعد عن القلق، وأوضح للمراد، وأفضل عند ذوي التحصيل، وأسلم من التفاوت، وأكشف عن الأغراض، وأنصر للجهة التي تنحو نحو العقل، وأبعد من التعمل الذي هو ضرب من الخداع بالتزويق، والرضى بأن تقع النقيصة في نفس الصورة"[١٣].

وما يُفهم من كلام عبد القاهر أن الاهتمام بالدلالة هو الأولى، ثم تأتي مرحلة الناحية الشكلية. ولما كان من الصعب على البشر أن يجمع بين هذا وذاك في إبداعاته المتنوعة، على مدى العصور، واستقر هذا الأمر استقرارًا بينًا في كتاب(الله)الكريم، غير ناب ولا شاذ، كانت الناحية اللغوية إحدى نواحي الإعجاز في القرآن الكريم.

ولنأخذ نموجًا آخر يحلُّ فيه المبتدأ المؤخر غير دال (الملك). يقول مولانا عز وجل: ﴿الم، غُلِبَتِ الرُّومُ، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ، فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ، بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الروم ١ - ٥). ويقع موضع الشاهد في قوله: (لِلَّهِ الْأَمْرُ)[١٤].

وفي تأمل بداية السورة حتى هذا الموضع، يدرك أنها اسْتُهِلَّت بالحروف المقطَّعة

---

[١٢] بدر الدين بن محمد بن عبد الله الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (دار التراث، القاهرة، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م)، الجزء الأول، ص٦٠ – ٦٧.

[١٣] عبد القاهر الجرجاني، **أسرار البلاغة**، تحقيق: عيد فتحي عبد اللطيف، مراجعة: محمد يونس عبد العال، (القاهرة: الأندلس الجديدة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢١ه – ٢٠١٠ م)، ص١٨، ١٩.

[١٤] ذكرتُ الآيات من بدء السورة؛ لأننا في حاجة لها في عملية التحليل.

(الم)، ثم تناولت حَدَثَينِ: أحدهما وقع في زمن الماضي (غُلِبَتِ الرُّومُ)، والآخر سيقع في الزمن المستقبل (وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ). وليس ذلك فحسب، بل حددت الآيات الفترة الزمنية التي سيتم فيها الانتصار (فِي بِضْعِ سِنِينَ)[١٥].

إذن نحن الآن في حديث عن حدث هزيمة وانتصار. ومن الطبيعي أن الأطراف المشاركة في تلك المعارك كل ما يشغلها هو كيفية الانتصار. ولما كان هذا الانتصار يحتاج إلى قوى متعددة: جنود وعدة وعتاد وحُلفاء...إلخ. سيق قوله تعالى (لِلَّهِ الْأَمْرُ) على هذا النحو ؛ ليضع الأمور في نصابها الصحيح وسبيلها المستقيم على مستويين: الدلالي بتقديم شبه الجملة (لله) الذي بيده تصاريف الأمور من انتصار وغيره. والمعنوي – النفسي الذي من شأنه أن يجعل المؤمنين يفتخرون بإيمانهم؛ إذ إلههم هو من بيده كل شيء – مع أخذهم بالأسباب – وحسرة كفار قريش المناصرين للفرس؛ إذ مَنْ يرفضون الخضوع له والاعتراف بأحقيته في العبادة هو القادر على كل شيء. ومن ثم، فإن كانت الدائرة قد دارت على الروم في هذه الواقعة، فلحكمته، المفهومة من قوله تعالى: (يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)، وهو هو القادر على نصرهم. وهذا ما حدث بالفعل.

وكما قلنا: لَمَّا كان (الأمر) المتمثل في حدث المعركة ونتائجها مما لا يُشك في حدوثه، بتكرار القتال مرة أخرى بين الفرس والروم، كان التوجه والاهتمام إلى الانتصار، ومن ثم مَنْ بيده أسباب هذا الانتصار، وهو (الله) عز وجل. لذا كان التقديم.

وهنا يقول الإمام البقاعي: "ولَمَّا كان تغليب ملك على ملك من الأمور الهائلة، وكان الإخبار به قبل كونه أهول، ذكر علة ذلك فقال: (لله) أي وحده (الأمر). ولما أفهم السياق العناية بالروم، فكان ربما توهم أن غلب فارس لهم في تلك الواقعة وتأخير نصرهم إلى البضع، ربما كان لمانع لم يقدر على إزالته، نفى ذلك بإثبات الجار المفيد لأن أمره تعالى مبتدئ من الزمن الذي كان قبل غلبهم حتى لم تغلبهم فارس إلا به، وهو مبتدئ من الزمن الذي بعده، فالتأخير به لا بغيره، لحكمة دبرها سبحانه فقال: (من قبل) أي قبل دولة أهل فارس على الروم، ثم دولة الروم على فارس، لا إلى غاية تكون مبدأ لاختصاصه بالأمور فيه سبحانه غلبوهم(ومن بعد)؛ أي بعد دولة الروم عليهم

[١٥] للآيات أسباب نزول، انظر: الواحدي النيسابوري، **أسباب نزول القرآن**، تحقيق: كمال بسيوني زغلول، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م)، ص٣٥٤، ٣٥٥.

ودولتهم على الـــروم لا إلى غايـــة فيه أيضًا غلبهم الروم، فحذف المضاف إليه هـــو الذي أفهم أن زمـــن غلبة فارس لهم ومـــا بعـــده مـــن البضع مذكـــور دخوله في أمـــره مرتين"[١٦].

كما يقول الألوسي في التقديم كذلك: "وتقديم الخبر للتخصيص، والمعنى: إن كلًّا من كونهم مغلوبين أولًا وغالبين آخرًا ليس إلا بأمر الله تعالى شأنه"[١٧].

ويضيف ابن عاشور معنًى آخر لتقديم شبه الجملة، فيقول: "وتقديم المجرور في قوله (لله الأمر) لإبطال تطاول المشركين الذين بهجهم غلب الفرس على الروم؛ لأنهم عبدة أصنام مثلهم لاستلزامه الاعتقاد بأن ذلك الغلب من نصر الأصنام عُبادَها، فبيّن لهم بطلان ذلك وأن التصرف لله وحده في الحالين"[١٨].

فإن قيل: هلَّا وازنتَ بين هذا التركيب (لِلَّهِ الْأَمْرُ) و ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (الانفطار: ١٩)؟ قلتُ – وبـ(الله) التوفيق -: إن الأمر كما بينَّا في سورة الروم، من تقديم الجار والمجرور. أما تأخيره في سورة الانفطار ؛ فلأن المبتدأ (الأمر) هو العالق في الذهن ؛ إذ تتناول السورة الكريمة بعض مشاهد الآخرة.

من هذه المشاهد دخول الفجار الجحيم ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ، يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ (الانفطار: ١٤، ١٥). ولدرء التوهم بإمكانية إفلات البعض من العقاب قال ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ (الانفطار: ١٦). ولشدة هول المشاهد وأخذها للقلوب ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ، ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ (الانفطار: ١٧، ١٨)، كان من الطبيعي أن تنشغل كل نفس بأمورها، ولا تملك نفس لنفس شيئًا، وهذا هو المفهوم من قول (الله) تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس: ٣٤، ٣٧) .

كل هذا، فضلًا عن تبرؤ الذين اتُّبِعوا من الذين اِتَّبَعُوا، الواردة في سورة البقرة. بعد كل هذا كان من الواضح أن انشغال كل نفس في هذا اليوم يكون بأمرها. وليس الانشغال بمالك هذا اليوم ؛لكونه معروفًا وهو (الله) سبحانه وتعالى، بعد استقرار هذه القضية بداية من سورة الفاتحة في قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾(الفاتحة: ٤)، ثم تتابع ذلك في

[١٦] البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، (القاهرة: دار الكتب الإسلاميَّة)، الجزء الخامس عشر، ص٣١، ٣٢.
[١٧] محمود شكري الألوسي، **روح المعاني**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، الجزء الحادي والعشرين، ص٢٠.
[١٨] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، الجزء الحادي والعشرين، ص٤٦، ٤٧.

ثنايا الآيات القرآنية.

ولما كان ذلك كذلك، ورد دال (الأمر) في منطقة المبتدأ، ليس للمسوغات النحوية في التعريف وغيره، ولكن لكونه المـُنْشَغَلَ به. ونتيجة لهذا، يسعد المؤمنون، ويحزن المشركون. لذا حاز على بلاغة قرآنية عالية، وإعجاز قرآني متناهٍ. ومن المعروف أن (اللام) في الخبر (لله) لاختصاص الباري عز وجل بهذا اليوم. و(الله) بمراده عليم. علمنا الله وإياكم، وغفر لنا إذا أخطأنا في تأويل كتابه الكريم.

وأحيانًا يرد الشبه جملة معتمدًا على الجار **(في)** واسم الجلالة (الله) ويُقدم على المبتدأ النكرة، مثل قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ (ابراهيم: ١٠). وعلى الرغم من وجود مسوغ نحوي لتأخير المبتدأ، وهو تنكيره، فإن تقديم الخبر لا يخلو من بلاغة. إن مضمون السؤال هنا، لا ينصرف ولا ينصب ولا يستهدف الشك ذاته؛ لأن الشك موجود، لكن المستهدف بالسؤال هو من يُشَكُّ فيه وهو (الله) سبحانه وتعالى من قِبَلِ المخاطَب ؛ لذا كان هو الأولى بالتقديم.

وأحيانًا يعتمد على الجار (إلى)، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (آل عمران: ٢٨)[١٩]. ويقابلنا في هذا الضرب من الخطاب نقطتان: الأولى انبناء هذا التركيب على حرف (الواو)، والأخيرة اعتماد التركيب على بنية التقديم والتأخير[٢٠]، مع أن ثمة مسوغًا نحويًا يجعل المبتدأ في صدارة التركيب؛ لأنه معرفة.

وإذا جئنا لحرف (الواو) الذي يتصدر هذا التركيب، أدركنا أن هذه (الواو) هي الواو الاستئنافية؛ لأن جملة (وإلى الله المصير) مؤكدة ومقررة لما سبق من التهديد في قوله (ويحذركم الله نفسه). فلما كان بين الجملتين كمال اتصال، مُنِع العطف[٢١].

أما النقطة الأخيرة، وهي انبناء التركيب بالاعتماد على بنية التقديم والتأخير، فإنه - كما قلت سابقًا – من حق المبتدأ هنا تصدر التركيب؛ لكونه معرفة. فلماذا قُدِّم الخبر/ شبه الجملة (إلى الله)، وأُخِّر المبتدأ (المصير)؟

---

[١٩] وانظر كذلك: سورة (هود: ٤)، وسورة (النور: ٤٢)، وسورة (فاطر: ١٨).

[٢٠] بنية التقديم والتأخير: عبد القاهر الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص١٠٧ – ١١٠، والإمام الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، الجزء الثالث، ص٢٣١ – ٢٣٨.

[٢١] ويختلف هذا من موضع لآخر، تبعًا للسياق التي ترد فيه الآية، وللتعرف على هذه المصطلحات (كمال الاتصال، كمال الانقطاع، شبه كمال الانقطاع، التوسط بين الكمالين) يرجى العودة إلى كتب البلاغة.

أدرج الإمام الزركشي تأخير ما حقه التقديم بوصفه علة لمراعاة مناسبة رؤوس الآي، أي لرعاية الفواصل القرآنية[٢٢]. وإذا تأملنا هذه الفاصلة (المصير) وجدناها تنتهي بمقطع طويل مغلق بحركة طويلة {صوت صامت (ص) + حركة طويلة (ياء) + صوت صامت (ر)}. وبالمقطع نفسه تنتهي الفاصلة السابقة عليها (حِسَابٍ) { س + الف + ب). وكذلك الفاصلة اللاحقة لها (قَدِيرٌ) {د + ياء + ر)[٢٣]. لكن السؤال: هل يمكن عدُّ هذا السبب (مراعاة الفواصل) هو السبب الأول في تأخير ما حقه التقديم، ومن ثم قُدِّم الخبر شبه الجملة (إلى الله)، وأُخِّرَ المبتدأ (المصير)؟ في رأيي: لا.

وكما قلت في الصفحات السابقة: إن بنية التقديم والتأخير أو أي بنية تؤسس على مبدأ العدول اللغوي ، لا يمكن أن يكون سببها الأول هو خدمة الشكل، بل خدمة المضمون. ولما كانت لغة القرآن الكريم مؤسسة على مبدأ العدول، وأسهم هذا المبدأ في إنتاج الدلالة القرآنية مضمونًا وشكلًا على أبهى ما يكون، كان الإعجاز اللغوي للكتاب العزيز أحد التجليات المهمة في الإعجاز القرآني .

وللبحث عن علة التقديم[٢٤]، يتحتَّم علينا العودة إلى السياق. تقول الآية الكريمة: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾

وكما هو واضح، فإن الآية تنهى في صدرها عن اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء من دون المؤمنين. ولما كان الأمر هكذا، فكان جزاء مخالفته، هو الخروج عن طاعة (الله)، والولوج إلى منطقة الكفر[٢٥]، إلا الموالاة باللسان، دون القلب، إذا كان لهم/ الكفار سلطان. ولعظم ذلك، ساق (الله) تحذيره (وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ) ؛ ولأن المحذَّر منه لا يُحاسب عليه إلا في الآخرة ، ساق التركيب (وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ).

وهنا نطرق باب علة التقديم. لما كان المحذِّر هو (الله) سبحانه، والمحاسِب هو (الله) جل في علاه، والمصير إلى (الله) عز وجل، جاء التقديم (إلى الله) إمعانًا في التحذير

---

[٢٢] الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، الجزء الأول، ص٦٢.

[٢٣] انظر في أنواع المقاطع الصوتية، الدكتور رمضان عبد التواب، **مدخل إلى علم اللغة**، (القاهرة: مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م)، ص١٠١.

[24] لأن عبد القاهر يرى أنه لا ينبغي أن نقول: قُدِّمَ هذا للعناية به أو لأنه أهم، دون أن نذكر علل هذه العناية وهذا الاهتمام. انظر: ***دلائل الإعجاز***، ص١٠٨.

[25] الإمام الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق: بشار عوَّاد معروف وعصام فارس، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٥هـ - ١٩٩٤م)، المجلد الثاني، ص٢٤١، ٢٤٢.

والإخافة والتهديد والوعيد. وقد أسهم هذا التقديم في تجلي الإمعان على نحوٍ ما كان سيكون عليه لو جاء التركيب معتمدًا على النحو التقعيدي في رُتَبِه الوظيفية.

إذا نظرنا إلى الحركة الأفقية (المسماه بالمحور التعاقبي في المنهج البنيوي) في قوله (وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) وتأملناها بدقة، ألفينا أن ثمة تكرارًا وقع لاسم الجلالة (الله) في ثلاث مناطق نحوية مختلفة دون انقطاع بينهما على هذا النحو:

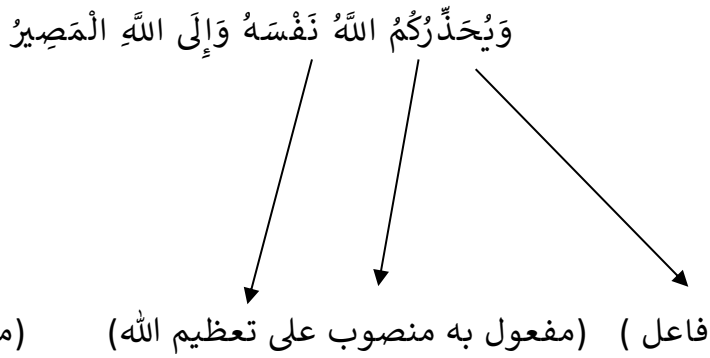

إن عدم إشغال ذهن القارئ للآية بشاغل لفظي بين المُحذِّر والمُحذَّر منه والمُحاسِب على هذا النحو الموصول غير المنقطع، لهو أدعى إلى الخوف والرهبة. بل والرغبة في معرفة صاحب المصير. اقرأ معي الآية في حال اعتمادها على النحو التقعيدي (وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَالْمَصِيرُ إِلَى اللَّهِ). لو توقف القارئ في عملية القراءة عند حرف الجر، وانتظر السامع، لكان المصير إما أن يكون إلى الله، أو إلى غيره.

وهذا هو عين ما طرحه عبد القاهر، والمتمثل في عدم الاكتفاء بالقول: إنه قُدم للعناية أو للاهتمام، دون أن نبين علل ذلك. هذا هو سر التقديم هنا، وهذا هو دوره في التماسك النصي للآية الكريمة، على هذا النحو المعجز[٢٦].

وفي هذا الضرب من الخطاب، أحيانًا يرد اسم الجلالة (الله) في صورة الضمير (هـ) في شبه الجملة (له) خبرًا مقدمًا، ويرد المبتدأ المؤخر (اسمًا)، وذلك مثل قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (البقرة: ١٠٧). وقول (الله) تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ

[٢٦] أحيانًا أخرى يرد شبه الجملة معتمدًا على الجار (على) في منطقة الخبر المقدم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (النحل: ٩)، وكذلك سورة (هود: ٦)، فتأمل.

تُرْجَعُـــونَ﴾ (القصص: ٨٨)[٢٧].

وأحيانًا أخرى يرد اسم الجلالة (الله) في صورة ضمير (هـ) في شبه الجملة (إليه) خبرًا مقدمًا، ويرد المبتدأ المؤخر (اسمًا)، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (غافر: ٣)[٢٨].

والفرق بين هذا الضرب من الخطاب وسابقه، يتمثل في عملية الإظهار والإضمار؛ فكما بُنِيَ الضرب السابق على إظهار اسم الجلالة (الله)، بني هذا الضرب على إضماره، والإتيان به في صورة ضمير (هـ)،سواء أكان حرف الجر اللام في (له) أم إلى في (إليه).

ومن الطبيعي أن السياق هو الذي يفصل في هذه المسألة؛ فإذا ما اقتضى السياق ظهور اسم الجلالة (الله) بلفظه ظهر، وإذا اقتضى إضماره أُضْمِر.

فإذا تأملنا السياق في الموضع الأول، وهو قول (الله) سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (البقرة: ١٠٧)، وجدنا أن اسم الجلالة (الله) جل في علاه ورد في منطقة اسم الناسخ (إِنَّ) في موضع الإظهار. وكان من الطبيعي - وفقًا لقواعد اللغة العربية وخصائصها - ألا يتكرر في موقع الخبر المقدم (له)، وبخاصة أن تركيب (له ملك السموات والأرض) يقع في منطقة خبر الناسخ (إِنَّ). ومن هنا كان الإضمار .

وإذا جئنا إلى الموضع الثاني، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص: ٨٨)، ألفينا الأمر نفسه؛ ففي صدر الآية ذُكر اسم الجلالة (الله) بلفظه (مع الله)، ثم سيقت كلمة الشهادة (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) معتمدة على الإضمار، ثم ورد الضمير (ــه) في موضع الإضافة في كلمة (وَجْهَهُ)، فكان طبيعيًّا – وفق ما سبق – أن يـــرد اســـم الجلالـــة (الله) في موضـــع الإضمـــار فـــي (لـــه)، وكـــذلك في (إليه). ومنعًـــا للإطالـــة، ودرء للملل، على هذا فقِسْ[٢٩].

---

[٢٧] انظر كذلك مع اختلاف المبتدأ المؤخر: سورة (المائدة: ٤٠)،وسورة (الأنعام: ٦٢)، وسورة(الأعراف: ١٥٨)، وسورة (التوبة: ١١٦)، وسورة (الفرقان: ٢)، وسورة (القصص: ٨٨)، وسورة (الزمر: ٤٤)، وسورة (الزخرف: ٨٥)، وسورة (الجاثية: ٣٧)، وسورة (الحديد: ٢، ٥)، وسورة (الرحمن:٢٤)، و(البروج: ٩).

[٢٨] انظر: سورة (الأنعام: ٦٠)، وسورة (يونس: ٤).

[٢٩] أحيانًا يرد اسم الجلالة (الله) في صورة ضمير المتكلم (نا) في موقع شبه جملة المقدم مع حرف الجر (علينا). انظر: سورة (الرعد: ٤٠). وأحيانًا أخرى يرد بالضمير نفسه، مع حرف الجر (إلى). انظر: سورة (يونس: ٢٣، ٧٠)، وسورة (لقمان: ٢٣). وأحيانًا أخرى يرد

المبحث الثاني: اسم الجلالة (لله) شبه جملة خبر مقدَّم والمبتدأ المؤخَّر الاسم الموصول العام(ما) و (مَنْ)

وكسابقه، يرد اسم الجلالة (الله) شبه جملة في موقع الخبر المقدم، ويشغل منطقة المبتدأ المؤخر الموصول العام(ما)و (مَنْ)[٣٠]. ومن نافلة القول، أنه غالبًا ما يرتبط ذكر السموات والأرض بالموصول (ما – من). وهنا يرد هذا التركيب على صورتين: الأولى عطف الأرض على السموات ب(الواو). الأخيرة: تكرار الموصول (ما- مَنْ) في منطقة العطف.

وفي ترك التكرار يرد قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (لقمان: ٢٦). وفي تكرار (ما) يقول (الحق) سبحانه وتعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٨٤).

أما مثال الموصول (مَنْ)، فيمثله قوله تعالى، مع تكرار (مَنْ) في منطقة العطف: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (يونس: ٦٦)[٣١].

ولأننا تناولنا عملية تقديم شبه الجملة على المبتدأ سابقًا، وقلنا أنها تفيد اختصاص اسم الجلالة (الله)، لا غيره، بمضمون المبتدأ المؤخر، وقصره عليه، فسينصب التناول هنا على مظهرين لغويين: **الأول** المبتدأ المؤخر نفسه الاسم الموصول العام (ما) و (مَنْ)، في محاولة التعرف على ماهيته وبلاغته في بنية الخطاب. **الآخر**: تكرار (ما) و(مَن) في منطقة العطف، أو عدم تكرارهما. وأثر ذلك في بنية الخطاب القرآني.

وفي البداية ينبغي علينا أن ننظر في معاني (ما) و (مَن).

بضمير المتكلم المفرد المتصل (يَّ) مع حرف الجر(إلى). انظر: سورة (آل عمران: ٥٥)، وسورة (العنكبوت: ٨)، وسورة (لقمان: ١٤، ١٥).

[٣٠] قد يمثل هذا المبتدأ اسمًا للناسخ (إنَّ)، مثل قوله تعالى في جواب الشرط: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا **فَإِنَّ لِلَّهِ مَا** فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ (النساء: ١٣١). وانظر كذلك: سورة (النساء: ١٧١). وسورة (يونس: ٥٥) .

[٣١] ثمة آيات كثيرة في هذا التركيب. انظر: سورة (الرعد: ١٥)، وسورة (الحج: ١٨). لكننا نتناول وقوع (ما – من) في منطقة المبتدأ المؤخر.

في (ما) يقول ابن يعيش: "إن (ما) تقع على ذوات غير الأناسي، أي غير العاقل، وعلى صفات الأناسي، أي على صفات العاقل"[٣٢].

ومثال الأول قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ (طه: ٦٩). وما في يمينه هي العصا، وهي غير عاقل. وما صنعوا هي أفاعيهم المتخيلة، وهي غير عاقل أيضًا.

ومثال الثاني قوله: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ (النساء: ٣).أي الطيب منهن. وقوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾(الكافرون: ٣)أي معبودي[٣٣].

وفي (ما) يقول ابن عقيل: "وأكثر ما تستعمل (ما) في غير العاقل، وقد تستعمل في العاقل في ثلاثة مواضع:

١. أن يختلط العاقل مع غير العاقل، مثل قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ فإن (ما) تتناول ما فيهما من إنس وملك وجن وحيوان وجماد، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء: ٤٤).

٢. أن يكون أمره مبهمًا على المتكلم، كقولك–وقد رأيت شبحًا من بعيد: انظر ما ظهر لي.

٣. وهو ما ذكر سابقًا – أن يكون المراد صفات من يعقل"[٣٤].

أما الاسم الموصول (مَنْ)، فهو يقع على ذوات من يعقل[٣٥]. وقد تستعمل في غير العاقل في ثلاثة مواضع - كما يرى ابن عقيل-:

١. أن يقترن غير العاقل مع من يعقل في عموم فصل بـ (مِن) الجارة، نحو

---

[٣٢] ابن يعيش، **شرح المفصل للزمخشري**، تحقيق: إميل بديع يعقوب، (بيروت: دار اكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م)، الجزء الثاني، ص٤٠٥.

[٣٣] فاضل السامرائي، **معاني النحو**، (عمان: دار الفكر، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م)، الجزء الأول، ص١٣٠. و(ما) في النوعين بمعنى (الذي). انظـــر: ابن هشام، **مغني اللبيب**، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، (دمشق: دار الفكر، ط١، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م)، ص٣٢٨.

[٣٤] ابن عقيل، **شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك**، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، (القاهرة: دار التراث، ط٢٠، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م)، الجزء الأول، ص١٤٧. وانظر كذلك: السيوطي، **همع الهوامع**، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م)، الجزء الأول، ص٣١٥.

[٣٥] ابن يعيش، ***شرح المفصل للزمخشري***، الجزء الثاني: ٤١٠.

قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ (النور: ٤٥). و(مَنْ) المستعملة فيما لا يعقل مجاز مرسل علاقته المجاورة في هذا الموضع.

٢. أن يشبه غير العاقل بالعاقل فيستعار له لفظه، نحو قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ (الأحقاف: ٥). واستعمال (مَنْ) فيما لا يعقل حينئذ استعارة؛ لأن العلاقة المشابهة.

٣. أن يختلط من يعقل بما لا يعقل نحو قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (الرعد: ١٥). وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (الحج: ١٨). واستعمال (مَنْ) فيما لا يعقل– في هذا الموضع – من باب التغليب، واعلم أن الأصل تغليب من يعقل على ما لا يعقل، وقد يغلب ما لا يعقل على من يعقل ؛ لنكتة. وهذه النكت تختلف باختلاف الأحوال والمقامات"[٣٦].

وإذا بدأنا بالنموذج الأول، وهو قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (لقمان: ٢٦). ألفينا – وفق المظهر اللغوي **الأول** – أن منطقة المبتدأ المؤخر قد شُغِلَت بالموصول (ما).و(ما) هنا تعني العاقل وغير العاقل. وبالعودة إلى السياق يمكن التأكد من ذلك. إن الآية السابقة تقول: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (لقمان: ٢٥). تتناول هذه الآية الكريمة حقيقة خلق (الله) للسموات والأرض، ولمعرفة المخاطَب / المشركين هنا بهذه الحقيقة، ورد الجواب بـ (لَيَقُولُنَّ اللَّهُ).

ومن ثم ورد خطاب (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) ليبين ملكية الله لما في السموات

---

[٣٦] ابن عقيل، ***شرح ابن عقيل***، الجزء الأول، ص١٤٧، ١٤٨، وهامشيهما. وقد أضفتُ بعض الآيات الاستشهادية من عندي. وانظر كذلك: السيوطي، ***همع الهوامع***، الجزء الأول، ص٣١٤، ٣١٥.

والأرض، بوصفه نتيجة لما سبق؛ إذ كيف بمن خلق الظرف لا يمتلك المظروف.

ولما كان خلق السموات والأرض، وما فيها يشمل العاقل وغير العاقل، جيء بالموصول (ما) وفق ما طرح ابن عقيل آنفًا، في الموضع الأول الذي ترد فيه (ما) للعاقل وغير العاقل ؛ إذ تم الاختلاط بين الاثنين.

أما المظهر اللغوي **الثاني**، فإنه يتمثل في عدم تكرار (ما) في منطقة العطف، أي لم يقل (الله) سبحانه وتعالى: (لله ما في السموات وما في الأرض)، وإنما ورد (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ). وهنا يقول الإمام البقاعي: "ولما تحرر بما تقدم أنهم عالمون مقرون بما يلزم عنه وحدانيته، لم يؤكد بإعادة (ما) والجار، بل قال: (والأرض) أي كلها كما كانتا مما صنعه، فلا يصح أن يكون شيء من ذلك له شريكًا"[٣٧].

أما النموذج **الثاني**، فقد بُني على تكرار (ما)، وذلك في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٨٤).

وكما قلنا سابقًا: إن (ما) هنا تشمل العاقل وغير العاقل، سواء أكان ذلك في السموات أم في الأرض. أما تكرارها في منطقة العطف (وما في الأرض)، ففيه سؤال: إذا كان الخطاب في الآية السابقة (لقمان: ٢٦) قد بُنِيَ على ترك التكرار، لعلم المخاطَب وإقراره بخلق (الله) للسموات والأرض، مع أنه مشرك، فما بالنا هنا بتكرار (ما) التي تفيد التأكيد، مع أن المخاطَب هم جماعة المؤمنين، مما لا يحتاج إلى تكرار للتأكيد؟. وللإجابة عن هذا السؤال، نعود إلى السياق.

يبدأ سياق هذه الآية الكريمة بآية الدين في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ﴾ (البقرة: ٢٨٢). وخاتمة هذه الآية هي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. وإذا وصلنا إلى الآية السابقة على هذا موضع الشاهد، وجدنا خاتمتها تتمثل في قول (الله) تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٨٣).

وبالتأمل، يُدرك أن علم (الله) في الخاتمتين موجه إلى ما سبق من مضامين، سواء أكانت في آية الدَّيْنِ من أحكام، أم في المكاتبة في السفر، وكتم الشهادة. والخاتمتان

[٣٧] البقاعي، **نظم الدرر**، الجزء الخامس عشر، ص١٩٥.

على هذا النحو تأتيان في موقف التحذير من مخالفة أوامر (الله) وأحكامه. ثم جاءت الآية موضع الشاهد، بوصفها تعليلًا واستدلالًا على مضمون الخاتمتين[٣٨]. وبالتبعية، يصبح الخطاب (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) تعليلًا واستدلالًا لمضامين الآتين السابقتين كلتيهما.

وباستكمال الآية نفسها، نجدها تقول: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. وهنا تتحدث الآية عن المحاسبة على السر والعلن، مما يزيد في عملية التحذير كذلك.

وبذلك توسطت الآية خطاب التحذير والوعيد من عاقبة المخالفة لأوامر (الله)، وكذلك المحاسبة على السر والعلن ، على هذا الشكل:

أحكام آية الدين وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ↑

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ (المحاسبة) ←↓

المكاتبة في السفر وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ

لذا، هرع الصحابة رضوان الله عليهم إلى النبي ﷺ وقالوا: كُلِّفْنَا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزل الله عليك هذه الآية ولا نطيقها، فنزل قوله تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا﴾ إلى آخر الآية[٣٩].

وفي رأيي – و(الله) أعلم بمراد تنزيله – أن تكرار (ما) و(الجر) في منطقة العطف في هذا الخطاب (وما في الأرض) الذي توسط تلك المضامين قد ورد لسببين: **الأول** أن المضامين السابقة واللاحقة على هذا التركيب مما يخص الأرض وليس السماء؛ إذ إنها متعلقة بالبشر. **الأخير:** أنها كُرِّرت للتأكيد – كما قال الإمام البقاعي من قبل – ليس لأن المخاطَب غير مؤمن، ولكن لشدة التحذير والتخويف والوعيد من عاقبة المخالفة لأوامر (الله) سبحانه وتعالى، التي سيطرت على كل آيات السياق الذي ورد فيه هذا الخطاب القرآني.

فإن قيل: أين العاقل وغير العاقل في كل هذا، حتى ترد (ما)؟ قلتُ: العاقل هو الإنسان

---

[٣٨] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، الجزء الثالث، ص١٢٩.
[٣٩] النيسابوري، ***أسباب النزول***، ص٩٧، ٩٨. لكن ما لم يطقه الصحابة كان خاصًا بما بعد الشاهد.

الذي سيخالِف ومن ثم سيحاسَب ويعاقَب. وأما غير العاقل فهي المعنويات التي يخفيها الإنسان أو يعلنها،أو يحاول التماطل فيها أو التحايل عليها، أو إخفاء الشهادة...إلخ.

ويرد النموذج **الأخير** في الموصول (مَنْ)، الذي يرد مع تكراره في منطقة العطف في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (يونس: ٦٦).

وهنا يقول الإمام البقاعي: "(ألآ إن لله) أي الذي له الإحاطة الكاملة؛ ولما كان بعض الناس قد أشركوا ببعض النجوم، جمع فقال معبرًا بأداة العقلاء تصريحًا بما أفهمه التعبير سابقًا بأداة غيرهم: (من في السماوات) أي كلها، وابتدأ بها لأن مُلْكَها يدل على مُلْكِ الأرض بطريق الأولى، ثم صرح بها في قوله مؤكدًا لما تقدم: (ومن في الأرض) أي كلهم... وعبر بـ (مَنْ) التي للعقلاء والمراد كل ما في الكون لأن السياق لنفي العزة عن غيره، والعقلاء بها أجدر، فنفيها عنهم نفي عن غيرهم بطريق الأولى، ثم غُلِّبُوا لِشَرَفِهِم على غيرهم، ولذا تطلق (ما) التي هي لغيرهم في سياق هو بها أحق، ثم يراد بها العموم تغليبًا للأكثر الذي لا يعقل على الأقل"[٤٠].

كما يقول شيخ الإسلام أبو السعود: "(أَلا إِنَّ للَّهِ مَن في السماوات وَمَن فِي الأرض) أي العقلاء من الملائكة والثقلين. وتخصيصُهم بالذكر للإيذان بعدمِ الحاجةِ إلى التَّصريحِ بغيرهم، فإنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم إذا كانوا عبيدًا له سبحانه مقهورين تحت قهرِه وملكته فما عداهم من الموجودات أولى بذلك"[٤١].

وهنا يقول العلامة ابن عاشور: "و(من) الموصولة شأنها أن تُطلق على العقلاء، وجيء بها هنا مع أن المقصد الأول إثبات أن آلهتهم ملك لله، وهي جمادات غير عاقلة، تغليبًا ولاعتقادهم تلك الآلهة عقلاء. وهذا من مجاراة الخصم في المناظرة لإلزامه بنهوض الحجة عليه حتى على لازم اعتقاده. والحكم بكون الموجودات العاقلة في

---

[٤٠] البقاعي، **نظم الدرر**، الجزء التاسع، ص١٥٦، ١٥٧.

[٤١] أبو السعود، ***إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم***، (بيروت: دار إحياء التراث، بدون تاريخ)، الجزء الرابع: ١٦١. وانظر كذلك: الإمام محمود شكري الألوسي، **روح المعاني**، (بيروت: دار إحياء التراث، بيروت، بدون تاريخ)، المجلد الحادي عشر، ص١٥٣.غير أنه قال في ذكر (مَنْ) التي هي للعاقل - وقد قال عنها الإمام البقاعي: إنها للتغليب -: "والتغليب غير مناسب هنا". انظر: **روح المعاني**، المجلد الحادي عشر، ص١٥٣.

السموات والأرض ملكًا (لله) تعالى يفيد بالأحرى أن تلك الحجارة ملك (لله) ؛ لأن من يملك الأقوى أقدر على أن يملك الأضعف ؛ فإن من العرب من عبد الملائكة، ومن عبدوا المسيح، وهم نصارى العرب"[٤٢].

وهنا تتفق الآراء في أن (مَنْ) الموصوله جيء بها للعاقل من الشركاء؛ لكي يكون ما دونها من غير العاقل منها كالأصنام وغيرها، أوجب وأدخل في الملكية (لله) تعالى. لكنهم اختلفوا في مسألة التغليب: أما البقاعي، فقد قال بالتغليب؛ لشرف العاقل على ما هو دونه / أي تشريف الإنسان على الجمادات. وقال ابن عاشور بالتغليب مجاراة للخصم لاعتقادهم أن آلهتهم عقلاء. أما الألوسي، فلم يقل بالتغليب.

والذي أراه أنه إذا كانت (مَنْ) قد سيقت للتغليب لمجاراة الخصم في فهمه وظنه حتى تدحض حجته، فلا بأس بهذا. وكذلك لشرف العاقل. وأما مسألة نفي الإمام الألوسي لعملية التغليب، فربما واتته من كون الشركاء الذين عُبِدُوا من غير العقلاء أكثر من الذين عُبِدُوا من العقلاء ؛ لذا ساق كل من الإمام البقاعي وابن عاشور سببًا لعملية التغليب. وكان على الألوسي أن يسوق حجته في كون (مَنْ) ليست للتغليب.

وأما تكرار (مَنْ) في منطقة العطف، فقد ورد لسببين من وجهة نظري: **الأول** التأكيد؛ إذ المخاطَب هم المشركون، وهم في حاجة دائمًا إلى التأكيد. **الأخير**: مغايرة من السموات عما في الأرض. فما عُبِدَ في السموات تَمَثَّلَ في النجوم والكواكب. وما عُبِدَ في الأرض تمثل في البشر والأصنام، إضافة إلى المشترك بينهما من ملائكة وجن. ومن ثم يمكن أن نضيف سببًا ثالثًا لتكرار (مَنْ) متمثلًا في الشمول والعموم.

وبالتأمل في بنية الخطاب، يدرك أن كل هذه الآليات الأسلوبية من أداة التنبيه (ألا) التي أُفْتُتِحَتْ بها الآية الكريمة، و(إِنَّ) التأكيدية، والاختصاص المفهوم من تقديم شبه الجملة (لله)، و(من) الموصوله بشموليتها...إلخ، يدرك أن كل هذا يصب في بوتقة واحدة، وهي تيئيس المشركين وقطع أملهم ورجائهم في أن يجدوا إلهًا يعبدونه من دون (الله) سبحانه وتعالى .

ويمكن أن نفهم هذا المعنى من قوله تعالى - بوصفه نتيجة طبيعية لما تولد عن هذه

---

[٤٢] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، الجزء الحادي عشر، ص٢٢٥.

الآليات الأسلوبية -: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾؛ فنفي ماهية الشريك عن تلك المعبودات تتواءم مع كونها مملوكة (لله) سبحانه، فكيف يكون المملوك شريكًا للمالك؟! ؛ ومن ثم أطلق المولى سبحانه وتعالى على هذه العملية أنها ظنٌّ؛ لذا فهم كاذبون على أنفسهم، قبل أن يكونوا كاذبين على غيرهم. وعلى هذا قِسْ بقيَّة الخطابات القرآنيَّة المعتمدة هذا البناء.

وفي هذا الضرب من الخطاب نفسه، أحيانًا يرد اسم الجلالة (الله) في صورة الضمير المتَّصل (هـ) في تركيب شبه الجملة خبرًا مقدَّما (له)، والمبتدأ المؤخَّر الموصول (ما-من). وذلك مثل قوله - تعالى -: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ **لَهُ مَا** فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ (البقرة: ٦٨)[٤٣]. هذا ولم يرد الموصول (مَنْ) في هذا الضرب من الخطاب في موقع المبتدأ المؤخر، وإنما ورد في موقع الفاعلية في موضعين فقط.

وعلى كل حال، وكما قلت سابقًا: إن بناء هذا الخطاب على ظاهرة إضمار اسم الجلالة (الله) ومجيئه في صورة الضمير المتَّصل (هـ) له ما يسوغه من الناحية اللغويَّة، وهو ذكره السابق على موضع إضماره، تمشيًّا مع قواعد اللغة التي نزل بها القرآن.

وإذا عدنا إلى النموذج محلِّ الدراسة، وجدنا أن اسم الجلالة (الله) ذُكِرَ بلفظه في صدر الآية (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا)، وعند تنزيهه عن ذلك، ورد في صيغة الضمير المتصل(هـ) في (سُبْحَانَهُ). وفي منطقة العطف بـ (بَلْ)، كان وِفْقًا لجماليَّات اللغة العربية، وخصائص التماسُك النصيِّ في القرآن الكريم، أن يرد اسم الجلالة (هـ) في (له)، وبخاصة أن موضع إظهاره قريب الصلة من موضع إضماره.

وفي نهاية هذا الجزء من الدراسة، يمكن أن يطرح مثل هذا السؤال: ما الفرق بين أن يكون المبتدأ المؤخَّر دال (ملك) مثل قول (الله) - سبحانه وتعالى -: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ

[٤٣] وانظر كذلك: سورة (البقرة: ٢٢٥)، وسورة (النساء: ١٧١)، وسورة (يونس: ٦٨)، وسورة (إبراهيم: ٢)، وسورة (طه: ٦)، وسورة (الحج: ٦٤)، وسورة (سبأ: ١)، وسورة (الشورى: ٤، ٦٣) . وجدير بالذكر أنه لم يبق موضع من هذا الخطاب إلا قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (الحج: ١٨)، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (النور: ٤١)، وأخيرًا قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الحشر: ٤)، لكن الموصول هنا لا يرد في منطقة المبتدأ المؤخر، وإنما يشغل منطقة الفاعلية، لذا لا ندرج هذه المواضع تحت هذا الضرب من الخطاب.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أو قول (الله) - عز وجل -: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وبين أن يكون الموصول (ما - من)، كما في قول (الحق) - تبارك وتعالى -: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، أو قوله - تعالت حكمته وعظمت قدرته -: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؟.

وفي اعتقادي – والله أعلى وأعلم – أن الخطاب القرآني عن (الله) - سبحانه وتعالى -، الذي يعتمد في بناء المبتدأ المؤخَّر على الاسم الموصول (ما - من) يُعَدُّ تفصيلًا للخطاب الذي يُبْنَى المبتدأ فيه على دال (ملك). ـ

إن ملكيَّة الحقِّ - سبحانه وتعالى - للسموات والأرض عندما تأتي مطلقة، فهي تشمل قوانين السموات والأرض؛ من رفعٍ للسموات بلا عمد، وبسطٍ للأرض على ماء جمد، من سير حركة الأفلاك، ومرور الأرض حول نفسها، وحول الشمس...إلخ، أي أنها تختص بخلقهما وقوانينهما. ثم تشمل كذلك ما فيهما ومن فيهما بكل ما يخصهما. وهناك آية جمعت الأمرين كليهما، وهي قول (الله) تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة: ١٢٠).

ومن الواضح – وحسب الطرح السابق – فإن المجيء بالموصول (ما) هنا لاختلاط العاقل بغير العاقل. ومن هنا يمكن القول: أن دال (الملك) يعني امتلاك الظرف والمظروف ؛ إذ كيف بمن يملك الظرف لا يملك المظروف؟!!. وأن الأتيان بالموصول (ما – من) ينسحب على المظروف. و(الله) أعلى وأعلم.

النتائج: ظهر مع انتهاء الدراسة مجموعة من النتائج، منها ما يلي:

١. أن تقديم شبه الجملة "لله" على المبتدأ المؤخَّر جاء في سياق تأكيد وحدانيَّة الله – عزَّ وجلَّ – وتأكيد ألوهيَّته وربوبيَّته.

٢. أن الهدف من التقديم ومن العدول عن الترتيب الطبيعي للجملة كان خدمة للشكل وللمضمون معاً، فهو كما يأتي مراعاة للفاصلة القرآنيَّة في ختم الآية؛ لخلق النغم القرآني، يأتي لنقل دلالة يقتضيها السياق والموضوع.

٣. أنَّ تقديم شبه الجملة (إلى الله) جاء إمعانًا في التحذير والإخافة والتهديد والوعيد لمن أنكر ألوهيَّة الله وأبى التسليم بعبوديَّته.

٤. أن الخطاب القرآني عن (الله) - سبحانه وتعالى - الذي يعتمد في بناء المبتدأ المؤخر على الاسم الموصول (ما - من) يُعَدُّ تفصيلًا للخطاب الذي يُبْنَى المبتدأ فيه على دال (مُلْك).

٥. أنَّ اسم الموصول العام (ما) يأتي بعد شبه الجملة "لله" المقدَّم ليُفِيد اختلاط العاقل بغير العاقل. ومن هنا يمكن القول: أنَّ دال (الملك) يعني امتلاك الله للسماء والأرض وما بينهما من عاقل وغير عاقل.

٦. أنَّ تقديم شبه الجملة مع الله – عزَّ وجلَّ – يفيد تخصيص الله بملكيَّة الكون ومَن فيه، وتأكيد أحقيَّته بالعبوديَّة، كما أنَّه يفيد تيئيس المشركين وقطع أملهم ورجائهم في أن يجدوا إلهًا يعبدونه من دون (الله) سبحانه وتعالى.

قائمة المراجع

إبراهيم، دسوقي. (٢٠١٦). خواتم الآيات: دراسة أسلوبية. القاهرة: دار اليقين.

ابن الأثير، ضياء الدين. (نحو ٦٠٠هـ / ١٢٠٤م). المثل السائر. تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة. القاهرة: دار نهضة مصر.

ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. (١٩٩٦). بدائع الفوائد. تحقيق هشام عبد العزيز عطا، وعادل عبد الحميد العدوي. مكة: مكتبة نزار مصطفى الباز.

ابن جرير الطبري، محمد بن جرير. (١٩٩٤). جامع البيان عن تأويل آي القرآن. تحقيق بشار عوّاد معروف وعصام فارس. بيروت: مؤسسة الرسالة.

ابن هشام، عبد الله بن يوسف. (١٩٦٤). مغني اللبيب. تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله. دمشق: دار الفكر.

ابن يعيش، موفق الدين. (نحو ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م). شرح المفصل للزمخشري. تحقيق إميل بديع يعقوب. بيروت: دار الكتب العلمية.

أبو السعود، محمد بن محمد. (نحو ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م). إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

الألوسي، محمود شكري. (نحو ١٢٧٠هـ / ١٨٥٤م). روح المعاني. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

البقاعي، إبراهيم بن عمر. (نحو ٨٨٠هـ / ١٤٧٥م). نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. القاهرة: دار الكتب الإسلامية.

الجرجاني، عبد القاهر. (٢٠١٠). أسرار البلاغة. تحقيق عيد فتحي عبد اللطيف. القاهرة: الأندلس الجديدة.

الجرجاني، عبد القاهر. (١٩٩٢). دلائل الإعجاز. تحقيق محمود محمد شاكر. القاهرة: مكتبة الخانجي.

الرازي، فخر الدين محمد بن عمر. (٢٠٠٤). نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز. تحقيق نصر حاجي مفتي أوغلو. بيروت: دار صادر.

السامرائي، فاضل. (٢٠٠٠). معاني النحو. عمّان: دار الفكر.

السكاكي، يوسف بن أبي بكر. (٢٠٠٠). مفتاح العلوم. تحقيق عبد الحميد هنداوي. بيروت: دار الكتب العلمية.

السيوطي، جلال الدين. (١٩٩٢). همع الهوامع. تحقيق عبد العال سالم مكرم. بيروت: مؤسسة الرسالة.

شيخون، محمود السيد. (١٩٨٣). أسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم. القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة.

عبد التواب، رمضان. (١٩٨٥). مدخل إلى علم اللغة. القاهرة: مكتبة الخانجي.

عون، علي أبو القاسم. (٢٠٠٣). بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم. بيروت: دار المدار الإسلامي.

المسيري، منير محمود. (٢٠٠٥). دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم: دراسة تحليلية. القاهرة: مكتبة وهبة.

الواحدي، علي بن أحمد النيسابوري. (١٩٩١). أسباب نزول القرآن. تحقيق كمال بسيوني زغلول. بيروت: دار الكتب العلمية.

قائمة المراجع الانجليزية

Abdult-Tevvâb, R. (1985). Medkhal ilā ʿilm al-lugha. Cairo: Maktabat al-Khanji.

Avn, A. A. Q. (2003). Balāghat al-taqdīm wa al-taʾkhīr fī al-Qurʾān. Beirut: Dar al-Madar al-Islami.

Abu al-Suʿūd, M. b. M. ([ca. 1543]). Irshād al-ʿaql al-salīm ilā mazāyā al-kitāb al-karīm. Cairo: Dar al-Mushaf.

Ibn ʿAqīl, A. b. ʿA. ([ca. 1400/1980]). Sharḥ Alfiyyat Ibn Mālik. Cairo: Dar al-Turath.

Ibn ʿĀshūr, M. T. ([ca. 1940]). Al-Taḥrīr wa al-Tanwīr. Tunis: Dar Sahnun.

Ibn Jarīr al-Ṭabarī, M. b. J. (1969). Jāmiʿ al-bayān ʿan taʾwīl āy al-Qurʾān. Cairo: Dar al-Maʿarif.

Ibn Hishām, A. b. Y. (1964). Mughnī al-labīb. Damascus: Dar al-Fikr.

Ibn Qayyim al-Jawziyya, M. b. A. B. (1996). Badāʾiʿ al-fawāʾid. Mecca: Maktabat Nizar Mustafa al-Baz.

Ibn Yaʿīsh, M. b. ʿA. ([ca. 1203]). Sharḥ al-Mufaṣṣal. Beirut: ʿĀlam al-Kutub.

Ibn al-Athīr, D. D. (1990). Al-mathal al-sāʾir. Beirut: Al-Maktaba al-Athariyya.

Ibrahim, D. (2016). Khawātīm al-āyāt: A stylistic study. Cairo: Dar al-Yaqin.

Al-Rāzī, F. D. ([ca. 1209]). Mafātīḥ al-ghayb (al-tafsīr al-kabīr). Tehran: Dar al-Kutub al-ʿIlmiyya.

Al-Rāzī, F. D. (2004). Nihāyat al-ījāz fī dirāyat al-iʿjāz. Beirut: Dar Sadir.

Al-Sakkākī, Y. b. A. (2000). Miftāḥ al-ʿulūm. Beirut: Dar al-Kutub al-ʿIlmiyya.

Al-Samarraʾī, F. (2000). Maʿānī al-naḥw. Amman: Dar al-Fikr.

Al-Suyūṭī, J. D. (1986). Al-Muzhir fī ʿulūm al-lugha. Beirut: Al-Maktaba al-ʿAsriyya.

Al-Suyūṭī, J. D. (1992). Hamʿ al-hawāmiʿ. Beirut: Muʾassasat al-Risala.

Shaykhun, M. S. (1983). Asrār al-taqdīm wa al-taʾkhīr fī lughat al-Qurʾān. Cairo: Maktabat al-Qahira al-Ḥadītha.

Al-Ukbarī, A. b. A. ([ca. 1219]). Al-Tibyān fī iʿrāb al-Qurʾān. Beirut: Dar al-Jil.

Al-Wāḥidī, ʿA. b. A. (1988). Asbāb al-nuzūl. Beirut: Dar al-Kutub al-ʿIlmiyya.

Yāqūt, M. S. ([ca. 1990]). Iʿrāb al-Qurʾān al-karīm. Alexandria: Dar al-Maʿrifa al-Jamiʿiyya.

Al-Zajjāj, I. b. S. ([ca. 922]). Maʿānī al-Qurʾān wa iʿrābuh. Beirut: ʿĀlam al-Kutub.

Al-Zamakhsharī, M. b. ʿU. ([ca. 1134]). Al-Kashshāf ʿan ḥaqāʾiq ghawāmiḍ al-tanzīl. Cairo: Maktabat al-Halabi.

Al-Zarkashī, B. D. M. ([ca. 1392]). Al-Burhān fī ʿulūm al-Qurʾān. Beirut: Dar al-Maʿrifa.